يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٥ أكتوبر . . .

لم يمكث المأمور عندى طويلاً ، فقد ذهب سريعاً ، وانقطعت عنى أخباره ؛ وطلبته كثيراً بالتليفون فى المركز فلم يدر أحد أين مقره . كل ما عرفوه عنه أنه خرج فى « البوكس فورد » مع المعاون ولم يعد ، وانتظرته طول نهارى لأعرف منه . . ؟ ؟ ولكن النهار انقضى وغربت الشمس وعيل صبرى ، فمشيت بنفسى إلى المركز فلم أفز بطائل ؛ وقال لى قائل : لعله عرج على النادى فهذا ميعاد جلوسه فيه . فاترددت ، وتوجهت إلى النادى فاستقبلنى أعضاؤه دهشين أول الأمر ، ثم هرعوا يقدمون إلىّ « الكرسى » السليم » الوحيد فى تلك الحجرة زيادة فى الاحتفال بى . فسألت عن المأمور فقالوا إنهم لم يروه وأنهم يعجبون لغيابه عن النادى حتى هذه الساعة . فلما علموا منى أنه خرج من الصباح مع المعاون فى « البوكس » ولم يعد صاحوا جميعاً ، من فم واحد :

— لا حول ولا قوة إلا بالله !

وصاح صوت من بينهم :

— ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله !

ولم أفطن إلى مرادهم فى مبدإ أمرى ، ولكن

التفاتة حانت منى إلى المائدة والورق المطروح عليها فى انتظار اللاعبين . ففهمت للفور وتذكرت ما قيل لى من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط فى هذا النادى ، وأنه اعتاد فى أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والعاش حتى لا يموتوا جوعاً إلى أن يقبضوا ، فيلاعبهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر ، وهكذا دواليك . وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها ، وهم يعزون أنفسهم بقولهم : « سواء أكانت النقود فى جيبنا أم فى جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة . . » شىء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف ، هو خروج المأمور بأموال البلدة « للاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحياناً من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفراً من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم . . وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع المعاون ، إلى

أقرب بلدة يلعب «دورين» ويرجع ، وتارة يستقبلون فى ناديهم « منتخباً » قادماً من بلاد أخرى . هنا فى مثل هذه القارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور أعنى مرتبات المركز . . .

على أنى لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولى لهم إن المأمور قد ذهب فى غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدباً واحتشاماً ، ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلاً أثناء شرب القهوة ، إلى أن قال أحدهم فى نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن حضرة القاضى انقطع عن النادى من زمن ... بسبب سوء التفاهم . . . فنظرت إلى المتكلم وقد بدا فى عينى المتسائلة ما دعاه إلى الاسترسال :

— أى نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور

وأمعن فى الثرثرة فقال :

— المسألة أصلها خلاف بين السيدات مع بعض . الست حرم القاضى واقفة مع الست حرم المأمور

فأطرقت صامتا ، وظن الحاضرون أن لى رغبة إلى الاصغاء . . فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلعوا لبعض فوق الأسطح ونزلوا فى بعض « ردح » من النوع « النظيف » ، امرأة المأمور إغاظة فى صاحبتها راحت لبست سترة زوجها الرسمية بالتاج « والضبورة » وغطت رأسها من غير مؤاخذة « بالطرحة أم ترتر » وقالت لها بالصوت العالى : « أنتم حواليكم إلا قلة القيمة ! لا يمشى وراكم إلا حاجب « رباييكيا » نص عمر مكسر صابع شعره . لكن المركز كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام » . قامت امرأة القاضى ونزلت فلبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان البمبى المسخسخ وطلعت تقول لها : « قطع لسانك وليه سفيهة ! أنتم صحيح مالكم إمارة إلا على خفيرين مغفلين ، لكن من فى البلد كلها بقدر يحبس ويشنق ويقول : حكمت المحكمة غيرنا ؟ . »

ولقد أحسست شيئاً من الحرج فى استماعى إلى هذا الكلام ، فما إن فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة فى هدوء ونهضت فى الحال مسلماً مودعاً وانصرفت

سرت فى الطريق إلى منزلى أفكر . ولقد تمهلت فى خطاى ، إذ لم أجد فى نفسى رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع أكداس من الشكاوى المتأخرة أضع أنفى فى تراب ملفاتها . وإن رأسى بعد لمشغول بغياب المأمور ، أتراه قد وجدها ؟.. أين ذهب بها إذن ؟ والشيخ عصفور ماذا جرى له ؟ العجيب فى الأمر أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون ! الحقيقة أننا لم نفطن اليه . لقد استطاع أن يختطفها من يد المأمور فى خفة ومهارة . نعم ، من يد حضرة المأمور لا من يدى أنا . ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه راضية . فهو من غير شك لم يكرهها ولم يحملها قوة واقتدارا . ما سر هذا التأثير وهذا النفوذ العجيب وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل ؟ أتراه قد أغراها بالهرب ؟ ولكن ما الذى يدعوها إلى الهرب ؟ أهى مجرمة ؟ أهذا الجمال الرائع يجرم ! أم نحن المجرمون إذ نظن السوء بالجمال ! إن من العسير على نفسى أن أتصور

الجمال غير مقترن بالفضيلة . الجمال الحق والفضيلة الحق شيء واحد . ولكن المصاب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاه بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن فى أذنى : « ريم » : ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنع وتمثيل ؟ لقد خلعت آهتها قلبي خلعاً فى تلك الليلة . وما أشك فى أن المأمور وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات قد تأثر مثلما تأثرت . فان كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع فى مرابط البقر لا أن نوضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها . وألهتنى هذه الخواطر وحملتنى قدماى من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عيني اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالى والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكنى لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشاً . فلقد لمحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ عصفور جالساً إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها الى الحائط تعباً وإعياء أو كآبة وحزناً . فهمت كل شيء . إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنها اتخذت من الشيخ الأخضر دليلا وصاحباً ومعيناً ، وكان ينبغى لذكائنا أن يتجه فى بحثه الى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إنى بفردى ؛ ولا سلطة لى بغير رجال الحفظ ألقى اليهم بالأمر . لا بد إذن من الذهاب من فورى الى دار المركز لأبعث أحد العساكر يأتى بهما . وأسرعت فى السير قبل أن يعلما برؤيتى لهما فيهربا خوفاً منى . وابتعدت عن المكان وأنا أقول فى نفسى : « لاشك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية . أو أنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينيه البراقتين فى بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل يفضى هذا الشيخ الينا بشيء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ، ولست أدرى أهو حقاً أبله أم خلف هذا الوجه الساذج ... ؟ ؟ وكنت قد بلغت المركز . ورأيت ببابه « البوكس فورد » فعلمت أن المأمور قد عاد ، فأسرعت واقتحمت عليه حجرته فألفيته ملقى على « الكنبة » وقد خلع طربوشه وأمسك القلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكد يرانى حتى صاح :

— المسألة وحياتك فيها شغل سحر : لا بد أن الشيخ الكلب سحر البنت . تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا فى دايرة المركز غيط ذرة ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كفر ولا دوار ولا زرعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعى ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفتشناها شبر شبر . لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك فى البحر كنا وجدناهم . لكن المصيبة أنهم ....

فما تمالكت أن قاطعته :

— المصيبة أنهم على بعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور ! !

فوضع المأمور « القلة » على الأرض ونظر إلىّ فاغرا فاه :

— إيه ؟

فقلت فى شيء من الحدة :

— طير إيه وسمك إيه ! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها .

— المستشفى الأميرى . ؟ !

— قم يا شيخ قل لواحد عسكرى يروح يناديهم من هناك ، بلاش أمور ...

ولم أتم بقية عبارتى ، فقد نهض المأمور فرحا

قبل أن يسمع منى . وصاح بصوت جلجل فى صحن المركز :

— ياشاويش عبد النبى :

فجاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق فى قميص وسراويل بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :

— أفندم سعادة البك ! .

— قم حالاً مع نفرين للمستشفى الأميرى ومعكم قيد جديد ...

فتردد الرجل وقال مقاطعاً :

— « أودة التين » مفتوحة ياسعادة البك والأنفار جارين العليق والفرش للخيل ...

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر : إن شا الله عن الخيل ما باتوا فى ليلهم . قلت لك قم فى الحال

— حاضر يا أفندم !

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى مكتبى بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بى مع المقبوض عليهما . فأنا لا أحب مطلقاً التحقيق فى دار المركز وهى ليست دارى . فرب المركز هو المأمور . ولا أرضى لنفسى أن أكون فى كنفه أثناء عملى . خصوصاً فى هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عجل وأرسلت من يستدعى كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت فى حجرتى جالساً إلى مكتبى أطيل النظر إلى الباب نافد الصبر منتظراً قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء

وسمعت نقراً على باب الحجرة . ودخل المأمور يسألنى للفور عن المطلوبين فأجبت أنى لم أر أحداً بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل من يأتى بهما . وجعل ينظر هو أيضاً الى الباب ويفتل شاربيه . وجاء كاتبى بأوراقه ونشرها أمامى . واستعد كل منا . وإذا بجلبة ترتفع فى الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق الباب علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه الباشجاويش يحمل له عوده الطويل . فوقع فى نفسى فاق . وشعرت بوقع مثله فى نفس المأمور . فقد ابتدر الباشجاويش صائحاً :

— والبنت . . ؟

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يافندم

— وحده . ؟ ! !

فالمأمور كما قلتها أنا فى نفس الوقت ، وقد اختلط فى نفسينا الأسف بالعجب والغضب . وخرج المأمور عن طوره فنهض وصرخ فى وجه الشيخ عصفور قائلا :

— البنت . ؟ !

فلم يبد الرجل حراكا . وأجاب فى هدوء رصين :

— بنت مين ؟

فنظر اليه المأمور نظرة شزراء وقال :

— إنت يا رجل شارب حشيش . ! ؟ شغل الحشيش أنا أفهمه طيب ! !

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ، وأمرت الشيخ أن يدنو منى فدنا فسألته فى رفق :

— ريم كانت معك ؟

فأجابنى الرجل من غير تردد :

أبداً

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتنى عند مرورى بباب المستشفى ، وفهم بذكائه ما سيكون فأخفى الفتاة فى الحال ، أو أن الأمر غير ذلك وأن عينى هى التى خانتنى فلم تكن ريم إلى جانبه ، وأن خيالى السابح فى جو هذه الفتاة قد ألقى صورتها

وأثوابها على امرأة أخرى من الفلاحات المنتظرات بالباب . كل هذا جائز ، ولكن أين ذهبت ريم ؟ ولماذا أنهم بصرى ولا أنهم هذا الشيخ المخاتل ؟ ومن هو أولاً هذا الرجل ؟ وصحت فيه من فورى قائلاً :

تعال يا رجل انت !

— محسوبك .

— من أنت ؟

فنظر إلىّ الرجل نظرة من لم يفهم السؤال .

فألقيت عليه العبارة من جديد فى شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحَب فوق التراب ، وأعبد الرب تحت التراب !

— تكلم جد يا رجل . اسمك ؟

— عصفور .

وأشار إلى يديه وفيها القيود وصاح :

— أطلقونى ! من حب النبى يطلقنى ...

فأمرت العسكر بفك القيد من يديه ، وسألته فى صرامة :

— صنعتك ؟

فتردد الشيخ قليلاً وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه ورجع رأسه إلى الوراء ، وجمدت عيناه كأنهما تنظران إلى شىء لا وجود له فى عالم الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

« أنا كنت صـــياد
وصيد السمك غيّه
نزلت بحر السمك
أصـــطاد لى بنّيه
وعجبنى شكل السمك
فى البحر حواليـــه
واحده بياض شفتشى
والثانيـــة بُلطيـــه
والثالثة من بدعها
سحرت مراكبيّه »

وتنهد فى العبارة الأخيرة واتخذ صوته فيها نبرة عجيبة ذات معنى ارتجفت له قليلاً ، ونظرت من طرف خفى إلى المأمور فرأيته قد اختلجت عيناه ، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل :

— ومن هم المراكبية ؟ ! !

فأطرق الرجل وصمت صمتاً عميقاً . ولست أدرى أهو أيضاً خيال منى أو حقيقة ما اعترانى من شعور بأن هـذا الشيخ قد فهم ... وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة الأولى ... »

(يتبع) نوفيق الحكيم

قصص اجتماعية

مترجمة بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

مجموعة من القصص الرفيع الشائق ثمانية من أعلام الأدب الفرنسى هم : بورجيه . كوبيه . أناتول فرانس ، موباسان . تيريه . مارسل بريفو . دى بانفيل . جان لوران . مع تراجمهم النقدية . ومترجمة بأسلوب فائق . فى ثلاثمائة صفحة طبع دار الكتب

ثمنه ١٠ قروش ويباع مؤقتاً بـ ٦ قروش بخصم ٤٠ ٪ عدا البريد وهو قرشان لداخل القطر وأربعة خارجه ويطلب من إدارة الرسالة وجميع المكاتب